

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَشْنَاءُ عَمِيرِ جَبَّالِ الْمَغْرِبِ

بِقَلَمِ

عَبْدِ اللَّهِ كُنُونِ

«مطبعة كريماديس» * شارع محمد الطريس رقم 17 * تطوان

رسالة من المستشرق بروكلمان

الى المؤلف

هالة في 7 رجب 1361

حضرة الاستاذ العلامة الشيخ السيد عبد الله كُنون الحسني
تحية واحتراما .

وبعد فقد قبلت كتابكم العزيز المسمى بالنبوغ المغربي
في الادب العربي الذي أكرمتموني برسالة الي فابتدأت
بقراءته واستفدت منه كثيراً في تاريخ الآداب المغربية مما
فات بعثي الى الان. وارجو ان اصرف مضمونه العزيز
لفائدتي وفائدة أصحابي المستشرقين في استدراك كتابي
الاول في تاريخ الآداب العربية الذي هو الان مطبوع في
مدينة ليدن. وكذلك قبلت كتابيكم في شرح الشسقمقية
ومقصورة انكودي وقرأت ما كتبتم في مقدمة الكتابين
في احوال المؤلفين وابتهجت بظرافة المقصورة، وثقافة
الارجوزة المشهورة، فان كتبكم لم يبلغ الي صيتها في هذه
الازمان المشوشة لولا ان ارسلتموها الي.

وتفضلوا يا حضرة السيد العزيز بقبول احترامي وتحياتي

كارل بروكلمان

العاطرة والسلام.

II

ابو القاسم الزباني

أبو القاسم الزباني

عالم أم أديب؟ نسبه، ابوته، ولادته، نشأته وطلبه العلم، تحصيله، استعداده في التاريخ والعلوم الأخرى من كتب جده، رحلته الأولى مع والده للبحر، نكبته الأولى ما استفاده في هذه الرحلة، خدمته للسلطان، نكبته الثانية، رضی السلطان عنه ورجوعه للخدمة، سفارته إلى اسلامبول ونجاحه العظيم، تقلبه في الوظائف موت السلطان وتولية اليزيد، انتقام اليزيد منه وتوالي النكبات عليه، اعتزاله الخدمة واعتماده بالعباد في تلمسان، رحلته الثالثة، عوده إلى المغرب وتوليه الوزارة. نكبة السلطان له من جديد، انقطاعه للكتابة والتأليف، كتبه، شخصيته في كتبه، أسلوبه في الكتابة والشعر، وفاته ومدفنه.

ربما كان ادخال هذه الشخصية في عداد العلماء أولى من ادخالها في عداد الأدباء، ذلك ان المزباني مؤلفات في التاريخ والجغرافية وبعض العلوم الأخرى لا يصح الاغضاء عنها ولا ينكر احد أهميتها بينما آثاره الأدبية ليس لها قيمة من الوجهة الفنية ولاكن بما انه ظل طول حياته ينافس معاصريه من الأدباء ويدعي التفوق عليهم ويخوض في فنون الأدب من كتابة وشعر حتى ان له ديوانا كبيرا وكان يشتغل في البلاط كأحد الكتاب، فانا ندرجه في قائمة لادباء واو بالمعنى العام، اذ مما لا ريب فيه ان له قاما سيالا وفكرا جبارا فيتناول الحادث مهما كان نوعه ويبسطه ويعلق عليه فعل احد الكتاب المتقفين من أهل عصرنا الحاضر، فلا يضره كون أسلوبه في بعض الأحيان يقرب من العمامة ولا انه يلحن

ولا يقيم وزن العروض ونحو ذلك ، من الهنات ، فهذا أديب الشام
الأوحد بل كاتب العرب الممتاز بتجديده وابتكاره في الأدب ما لم
يات به أحد قبله ولا لحقه أحد بعده أعني جبران خليل جبران ،
كثيراً ما يزل قلمه ويرتكب أشنع الأخطاء اللغوية والنحوية مع
أنه عربي وفي هذا العصر الذي احييت فيه اللغة حتى سهلت على
الأجانب عنها من الإعاجم والفرنج وغيرهم وليس ذلك بمخرجه عن
أن يكون أديباً فذاً بل من أعظم مفاخر العرب في هذا الشأن .

والزياني بالزاي مفخمة أو بالصاد المشممة زايا كلفظ صراط
في قراءة حمزة - كما يقول الناصري ويكتبها هو كذلك وبتخفيف
الياء - نسبة الى قبيلة زيان من أهل الأطلس المتوسط ، هو أبو
القاسم أو بلقاسم كما كان يوقع هو ابن أحمد ابن الفقيه الاستاذ
النسابة ابي الحسن علي بن ابراهيم .

كان مقرجه هذا بقريّة "أركو" قرب "أذخستان" وها قرأ عليه
العلامة اليوسي القرّات السبع ثم نقله السلطان مولاي اسماعيل
الى حضرته مكناس وسبب ذلك انه لما نزل بأذخستان واجتمع عليه
الأشراف الذين بآركو قال لهم : دلوني على رجل صاحب فقه ودين
يؤمنني في الصلوات فقالوا له ليس بهذا الجبل اتقى من سيدي علي
بن ابراهيم فاتوا به فكان امامه في المحلة ولما قفل اخذه معه ، قال

حفيدة المترجم» فهذا سبب انتقال جدنا من آرثو الى الحضرة» وقد بقي هو واولاده على هذه الحال الى ان توفي بها فانتقل ولده احمد والد المترجم الى فاس سنة 1139 عند وفاة السلطان فاستوطنها وولد له بها ابو القاسم سنة 1147.

وقد نشأ في حجر والده وقرأ القرآن واشتغل بطلب العلم على شيوخها احمد بن الطاهر الشرقي وهو أول من اخذ عنه ومحمد بن الطيب القادري وعبد القادر بوخريص وعمر الفاسي ومحمد بن ابراهيم والناودي بن سودة ومحمد بناني الا انه انقطع عن مجلس الفاسي بسبب شيطنة التلاميذ حيث ذكروا له عنه اشياء كان يتهم بها ، واعلمها مسائل الخط والجدول ، وكانوا في نزعة فقال له الفقيه: «يا فلان أرنا شيئاً مما تعلمه ولا نعلمه نحن» قال وصمم علي في ذلك فخرجت منه وقلت لم يتهدأ لي ابل الان ، فقال: «واو ما خف» فقلت لم يحضرني شيء الان. فكان ذلك سبب انقطاعي عنه ولزم محمد بن الحسن بناني ونسخ حاشيته على الزرقاني فكان يطالعها ويحضر مجلس ابن ابراهيم قال فكان يشتمز من ابحاثها وذلك يدل على انه كان يورد تلك الابحاث على الشيخ فعل شياطين التلاميذ ويدل بالاحرى هو والواقعة التي قبله على نجابة الزباني وحسن تأتية الاشياء منذ صغره.

ومن دون علم الجدول وغيره من العلوم السرية التي ربما كان اخذها عن والده، فان ما درسه على هؤلاء العلماء هو الفقه والحديث والتفسير والنحو والمنطق. وعلى كل حال فان التاريخ والنسب و الجغرافية التي هي بضاعته المنتقاة لم تكن مما درسه في القرويين ولا مما اخذه عن شيوخها المذكورين وانما سرت عدواها اليه من جده علي بن ابراهيم المذنب و انفا وقد كان كما قال هو عنه انفا استاذا عشريا نسبة اخبارنا لم يكن في وقته من يالحقه في النسب، واليوسي نفسه يقول في حقه «عنه اخذت عمود اجدادي الي يوسي ابي القبيل نه كان نسبة الوقت»

وقال حفيده المرحوم «لما طالعت الكناشر الذي فيه رفع نسبه الي ابي القبيلة زيان ومنه للمجد مالو الصنهاجي، ومن مالوا رفعه الي اليسع الذي اسلم على ما في تاريخ سليمان بن سابق المطماطي نسبة البربر ومنه الي صنهاج ابو صنهاجة في الجاهلية، ومنه الي بربر مازين بن نبد بن كنعان بن حام بن نوح عليه السلام (١) وهذا سبب اعتنائني بالبحث عن كتب التاريخ والانساب لما وجدت فيه من تقييداته رحمه الله» فكشف بهذا عن سر توجهه هذه الوجة

(١) هكذا بالاصل من الترجمانة، ولا يستغرب من اسلوب الزيباني عدم الارتباط بين الجمل.

من البحث وافاد ان كل ما ادركه فيها من تفوق ونبوغ انما هو نتيجة جده واجتهاده.

ولا يبعد في نظرنا ان يكون هذا الكناش الذي حوى معارف جده هو الذي لثمه تلك العلوم السيمية من سر الحرف والجدول وغيرهما وان لم يذكر ان جده كان على بال منها لان عادة اهل هذه العلوم اخفاؤها وعدم البوح بها الا لخاصة الخاصة من احبابهم، والمترجم نفسه تنصل منها وقبراً لما خاطبه شيخه ابو حفص القاسي في شانها مع انه كان يرمى بها بل لم يملك ان اعترف بها ضمناً عند ما تكلم في الرحلة على بعض المتشيخين الذين يخذعون الناس بالحيل فقال:

«كيف لي علم منها ما يعد من الكرامات، ومن يشاهده لا يشك انه من اكبر العلامات، اذا ادعى النبوة وانواع الرسالات فاني اعرف الرجل يلقي من يده السبحة فتسعى اليه بعد الاستدعاء، ولا يرتكب هذا التدليس والافتراء، ويتكلم على المصباح الموقود فيظفي، ويضع الحاجة (الشيء) امام القوم فتخفي، ويتكلم على المصباح الذي انطفا فيشتعل، وعلى النائم فينفع، ويصب الماء في الاناء فيجمد، ويقراً على النار فتخمد، ويكتب المكاتب لمن بالشرق ويلقيها من خلفه، ثم يفتحها فتوجد اجوبتها حل على وفقه، ويستخرج

اسم الرجل المجهول واسم ابيه وامه، وقبيلته وفصيلته وقومه، ويلقي على النحاس المذاب غباراً، فيصير نضاراً، وهو زاهد في ذلك (يعني دعوة المشيخة) ورع في حيز الاهمال، لا يلتفت لمنصب ولا جاه ولا مال، مقبل في بيته على تسويد الاوراق، بماشاهده في الجولان بالآفاق فمن يكون هذا الرجل غير ابي القاسم؟

ولا يقال انه انما تعلم هذه العلوم بمصر على ما سيااتي لان هذا اعني وقوفه على كناش جده كان قبل نعايه امصر، نعم في مصر زاد فيها براعة واتساعا وتفندا واطلاما وادا فيكون تخرجه من مدرستين، مدرسة القرويين وقد قرأ فيها علوم الدين واللغة ومدرسة العائلة وقد قرأ فيها التاريخ والنسب وسائر العلوم الخفية. ولما اشبع نهمته من المدرستين اتيح له سبب آخر ليدخل مدرسة جديدة اوسع دائرة واعظم مفعولا من كل ما عداها وهي مدرسة السياحة، فان الفتن التي توالى على المغرب منذ وفاة السلطان اسمعيل واضطراب حبل الامن وعدم استقرار الاحوال على ما عهد من قبل، جعلت والد مترجمنا يفكر في الرحلة بغية المجاورة والاستقرار نهائيا في المدينة المنورة.

وقد نفذ هذه الفكرة في عام 1169 وكان عمر ولده المترجم 23 سنة. فباع كما يقول ولده في سداجة دارين كانتا له بفماس

وكتبها لوالده الاستاذ علي وجمع من ذلك ما فيه بلاغ ومقنع. وكان المترجم يساعد والده وياخذ بيده في تدبير امور السفر وهو على طيشه وحدته كان محبوبا من والديه لانه لم يبق لهما غيره.

ولما بلغوا مصر كان مرادهم ان يصحبوا ركب الحاج الا ان بعضهم اشار على والده بركوب البحر لكونه اقرب مسافة واقل مشقة واشترى له سلعة بقصد التجارة ففي مرسى ينبع تكسر المركب وضاعت السلعة وتلفت الاسباب وحمدوا الله على عتق رقابهم وكانت هذه النكبة هي اولي النكبات السبع التي اصابت المترجم واثرت في حياته تاثيراً عظيماً، وهناك اخرجت والدته من حزامها 300 دينار لم يكن لهم بها علم وانما كانت ادخرتها لمثل هذا اليوم فمنها اكتروا لجة ومكة واقاموا الفرض كما يجب وتوجهوا الى المدينة بقصد الزيارة فقط لان السجادة مع ذهاب البضاعة التي كان معولهم عليها اصبحت مستحيلة، فرجموا الى مصر وكانوا قد تركوا بها بعض الاسباب عند صاحبهم بقصد بيعها، فباعها وتحصل فيها مبالغ 600 ريال، فبها اصلحوا الاحوال واستعدوا للرجوع الى المغرب حيث بلغهم خبر وفاة السلطان مولاي عبد الله وبيعة مولاي محمد.

وفي الاسكندرية لم يجدوا مركباً قاصداً لاجل الحرب القائمة

بين اسبانيا وفرنسا وبين الانجليز المسماة حرب السبع سنوات، وكان القرصان في نشاط عظيم فاكثروا مركبا الى الكرنة (ليكورن بايطاليا) حيث اقاموا اربعة اشهر ثم توجهوا الى مرسيليا ومنها لبرسلونة فاقاموا بها حيث كان الفرنسيون محاصرين لجبل طارق، وبعد رفع الحصار ذهبوا الى تطوان ومن ثم الى فاس فدخلوها وليس معهم الا سبعة مئاقيل.

كان قد مر على خروجهم من فاس نحو الثلاث سنوات راى مترجمنا فيها كثيراً من بلاد الشرق والغرب ودرس احوال امم كثيرة واستفاد معلومات مختلفة لم يكن ليحصل عليها وهو مستقر بفاس متردد بين دارهم والقرويين واعظم ما حصل عليه بالقاهرة في بيت صاحبهم الذي كان نزولهم عنده هو تعلمه من ابن هذا الصاحب لمسائل من علم الرمل والسيما اضافها الى ما كان عنده من هذه العلوم السرية ورجع بذلك فرحاً مسروراً يقول لنفسه حياء مبرورا وهاك عبارته في هذا الصدد:

«وفي اقامتنا بمصر كنت اجالس بالبيت ابن ذلك الصاحب، واشاهد منه عجائب كان له يد في علم الرمل وعلم السيميا، ومن راى تصوراته يحسب انه من الاولياء فشغفت بفته واتخذته شيخا ولازمته حتى ملكت لبه بالسخا، فجاد هو ايضا بما عنده في الجريب،

واقفادني في امد قريب، واوقفني على ما في علمه من خواص المعادن
وما ينشأ عنها من الاسرار والعجائب، التي يبلغ المرء بها اعلى
المراتب، واظلعني على ما يلحق بها من الحيل التي يستعملها
المشعوذون، ومن بحرها يستمدون فعدت بذلك مسرورا، وقلبت
حجا مبرورا.

ولما استقروا بفاس عاد المترجم الى القراءة كما كان ثم
سال عن رفقائه في الاندلس والطلب كاحمد بن ناصر الغياثي
والغزال وابن الوزان وسكيريح وابن عثمان ومحمد بن الشاهد
وسعيد الشليخ الجزولي فوجدهم قد تعلقوا بخدمة السلطان، وكان
بينه وبين هذا الاخير اعني الشليخ مودة كبيرة اذ طالما عكفنا
على المطالعة معا وسرد كتب التاريخ التي كان للشليخ واع كبير
بها، فلما بلغه خبره وما صار اليه امره عند السلطان سيدي محمد
بن عبد الله شرهت نفسه للحاق به وتعلق هو ايضا بالخدمة ولم يجد
نصح والده له ولا نهيه عن ذلك شيئا وهكذا اصبح ابو القاسم
الزياني كاتباً في البلاط العلوي ومن رجال الدولة المعدودين.

انما لم يكد الحظ يبسم له حتى قطب في وجهه قطوبا شديدا
لينكبه الدهر نكبه الثانية ففي عام 1182 طرده السلطان وبقي
مههددا بالقتل بعد ما مرت له عشر سنين في الخدمة والطاعة.

وذلك بسبب وشاية القائد ابي القاسم الزموري به حيث اتهمه بان له يدا في ثورة (آيت ومالو) التي ام ترحب بالقائد المذكور وردته على اعقابه ذاك مما اضطر السلطان الى استفسار القبائل وخروجه بنفسه الى قتال القبيلة المذكورة، وتبعاً لاشارة القائد قسم السلطان جيشه اذلاً وعين لكل ثلث مكاناً يربط فيه غير ان هذه الاشارة دلت على جهل القائد بالامكن التي يقع فيها القتال وتعرضه الجيش للانكسار وفي ذلك هزيمة السلطان وخياع هيبة المخزن، فلم يسع السلطان الا ان استدعى الزيانى الذي كان منبوذاً مطرحاً في المحلة فاسرع نحوه وبين له خطأ الفكرة وفشل الخطة ولم يتورع ان يقول له ان ابا القاسم الزموري رجل مشؤوم، ثم بين له السبب الذي نفرت به آيت ومولو عن القائد حتى عرفه وحينئذ اقبل عليه السلطان واعتمده في انقاذ الموقف باستخدام جاهه عند تلك القبائل فما عتمت ان التقت السلاح ودخلت في الطاعة.

ورجع السلطان ظافراً منتصراً من غير ان يريق دماً حراماً او يزهق روحاً بريئة. وعرف اخلاص كتابه فرفع منزلته على اقرانه وصار يقدمه في المهمات واخلف له ماضاع، وخوله الممايلك والاتباع، وربما جعله رئيس ديوان الكتبة على ما تعطيه عبارته،

في حين ابعد خصمه الواشي به وجعله بمكان الاهمال.
 ثم في سنة 1198 توجه السلطان الى تافيلالت حيث كان
 عمه الحسن بن اسمعيل قد اعصوب بشيعة من قبائل الصحراء
 وكثر ايذاؤه لابناء عمه من الاشراف فافرده عن تلك القبائل
 وكسر شوكته وبعث اليه بابي القاسم الزيباني يعرض عليه
 السكنى بمكناسة وينفذ له ما يكفيه فقضى المهمة على احسن
 حال وانقلب به الى مكناسة من حيث صحب معه بامر من السلطان
 اولاده الثلاثة مولاي سليمان والحسن والحسين وعددا من المدافع
 والمهاريس والتدائف وطائفة من الطبجية الالمان والفا من
 عسكر الثغور فقضى الغرض كما ينبغي ثم وجهه السلطان ايضا
 الى الغرب لياتيه بجيش من عبيد الثغور ويلقاه بهم الى مراکش
 ففعل ومن ثم خرج السلطان الى الصويرة بقصد الفرجة وجسمام
 النفس واشخص معه جماعة من العلماء والادباء كان ابو القاسم من
 جملتهم فقضى هناك الربيع على احسن حال.

وفي عام 1200 ارسله السلطان سفيرا الى الخليفة عبد الحميد
 الاول بالاستانة فركب البحر من الصويرة هو وسفير تركي
 اسمه اسمعيل افندي كان عند السلطان، ونزل بمالقة ثم ركب
 منها قاحدا دار الخلافة ولاكن المركب عطب فاجأ الى تونس بقصد

اصلاحه ونزل عند بايها حمودة باشا الذي اكرم نزله ثم بعد عشرة ايام اصلى المركب وتوجه توا الى طيئه، فحين عاين السفير التركي شواطي^٤ بلاده استأسد وجعل يسب المغرب وسلطانه فذهاه الزياني فلم ينته، فحينئذ قام اليه واخذ بلحيته وارا ذبحه، تقربا به الى الله - كما يقول - الا ان رئيس المركب خلصه من يديه وشفع فيه فتركه. ولا نحتاج الى القول ان الزياني قام بمهمته كما يجب وان ولاة الامر في الاستانة قد اعتنوا به غاية وانه قابل الخليفة في غير الموعد المحدد لمقابلة امثاله من السفراء رعا لوقوع الحرب بين الدولة العلية وروسيا ومحاولة الدولة السلف من سلطان المغرب ومما يزيد في اعتبار الزياني انه لما عرض عليه الوزير التركي الاول فكرة السلف رحب بها وايدها وقال ان سلطانا له رغبة في الجهاد ولولا مشقة البحر وبعد المغرب لسي للجهاد بنفسه، واما المال فانه يعطيه بلا سلف.

وهكذا تقرر رجوع الزياني ومعه سفير تركي الى المغرب بعد ما قضى 100 يوم في الاستانة وزار جميع مشاهدها وآثارها من مساجد ومدارس ومكتاب ودار السكة والخزينة وغيرها ووصف كل ما وقعت عليه عينه وسمعته اذنه وصفا دقيقا شيقا يطول تتبعه. وكان ممن اجتمع به هناك الشيخ كمال الدين اشنا وقرأ

عليه تاريخه لتركيا واختصره.

وفي اثناء الطريق وقع من السفير التركي مثل ما وقع من سابقه برغم توصيته والتأكيد عليه ان يكون عند نظر الزياتي. ولما شعر به انه يراود رئيس المركب على الدخول الى مرسيليا التي لم يشأ الزياتي التعريج عليها كرها للحجر الصحي، جعل يراقبه وينظر في الخريطة حتى اذا وصلوا للمحل الذي يتوجه منه الى مرسيليا طلع فوق (القاهرة) وجلس ووقف خداه بسلاحهم فلما اراد رئيس المركب ان يتوجه نحو مرسيليا قال له: ابق على طريقك، والله لو درت بالمركب لاقتلنك! وهكذا انتصر على السفير التركي مرة اخرى، وسجل النزق والطيش على السفراء الترك مثل ما كان يقع من بعض سفرائنا كالذيف تصرفوا في مال الفدية الذي وجه به السلطان هدية الى الخليفة لما لم يقبل اهل مالطة فداء الاسرى الترك الذين عندهم فلما تنهبوا لسوء تصرفهم انقطعوا بالشرق خوفا من السلطان. ولهذا لما وجه السلطان الزياتي قال له: اني اخترتك لتشفي غليلي في امرين: أحدهما تقبض على اولئك الظلمة الذين سرقوا من مال الله. والثاني: تسفه هذا الباشا سدور (السفير الذي ذهب معه) الذي كذب علي وتعرفهم انه لا يصاحح للمسفارة بين الملوك ويلزمه ما يلزم اصحابي الذين سرقوا من مال الله.

ولما لقي الزيادي السلطان فاوله كتابا من عند الخليفة يقول فيه «وبعد فانه قد وصلنا من مقامك الاسمي عشرون سفيرا واحسنهم عقلا ونبلا وسياسة وادبا فلان الذي أدى لنا رسالتك وهديك بأدب وانفصل عنا بأدب فمثلته من يكون سفيرا بمن الملوك فان اقتضى نظرك توجيه سفير من اطرافك فليكن هو فان ظاهره واطنه سواء» وما ندري هذا نص الرسالة أو تقرير من الزيادي وعلى كل حال فقد سر السلطان به بذلك سرورا عظيما ودعا له بخير واثني عليه وذوه به امام الجمهور.

ثم استشاره في مقدار المال الذي يوجهه اعانة للخليفة على الجهاد لا سلفا فقال مليونان فاستكثرها السلطان . فبين له انهما مبلغ ستمائة الف وخمسين الف ريال فقط من سكة المغرب لان سكتهم ربعها فقط قضة والباقي نحاس، وسمع المليونين تعلو بهما همة السلطان عندهم فاستصوب رايه ودعا له وامر بارسال العدة المذكورة جعلها سبائك في اربعة صنادق ووجهها على طريق اسبانيا ثم فرنسا فجاء الجواب بوصولها في ستين يوما والسفير التركي لا زال عنده مع حكايات آخر قدم بعده.

واما الزيادي فقد تقلب بعد ذلك في عدة وظائف من قيادة وولاية على المدن وتدريب الجنود البحرية فضلا عن السفريات

المتعددة بين وجدة وتازة ومكناس وطنجة وتطوان والعرائش وغيرها. ثم في سنة 1202 سمى السلطان واليا بتافلات ولما اظهر التردد قال له: «طب نفسا ولولا اني احبك ما وايتك على اولادي واهل بيتي» فبقي هناك ثلاث سنين الى ان توفي السلطان، وكان المولى سليمان اقترح عليه تاليف تاريخه الترجمان المعرب وهو وسجله باسمه (فبدا يشتغل به من حينذاك).

لما توفي السلطان سيدي محمد بن عبد الله وولي ابنه اليزيد الذي لم يكن راضيا عن الرياني بدا سوء الطالع يصاحب هذا الاخير فلم ينشب ان زجه اليزيد في السجن وصادر املاكه الا دارا صغيرة ابقيت لسكنى عياله، وكانت هذه هي الزكبة الثالثة وبعد مدة اخرج من السجن وولاه السلطان على اكدادير ثم رده وكلفه بعدة مهمات ولاكنه عاد فتقبض عليه وضربه حتى غاب عن الوجود واخرج فيه مسدسه ولاكنه نجا من الموت لعدم حضور اجله وكان ذلك في العرائش فأمر بسجنه هناك. قال «ولم افق من غشيتي الا بعد ثلاثة ايام فوجدت الحديد على رجلي والسلسلة في عنقي ويدي مكسورة واصابعي كذلك، فكان بعض الاحبية ياتيني ليلا بطبيب يعالج يدي وراسي وجراحتي» ولعل هذا الكسر الذي اصابه في راسه هو الذي يتحدث انه طارت به جمجمته فجعل

مكادها طرف من القرع فاحتف به اللحم وتماسك.

ثم بعد شهر استقدمه السلطان للرباط وكان مراده قتله فسلم
ايضا بحفظ الله بعد تجريده من الثياب وياسه من الحية، وكانت
هذه هي النكبة الرابعة من نكباته السبع. وبقي مسجوناً في
الرباط الى ان توفي اليزيد فسرحه اهل الرباط برغم امتناع حاكمهم
ومن ثم قصد فاس حيث حضر بيعة المولى سليمان .

كان المولى سليمان يعرف كفايته ومقدرته فـولاه على
وجدة ليصلح ما فسد من احوالها فان عرب اذنگاد كانوا قد
عاثوا في تلك النواحي فسادا ونهبوا الحجاج ولم ير السلطان خيرا
من تولاية الزياني لقمعهم وكبح جماحهم الا انه كره ذلك لعلمه بما
فيه من المشقة واستقال فما اقبل فتوجه اليها مرغما وخرج معه
رقيب التجار الذي كان محصورا بفاس وما وصلوا الى ارض
اذنگاد حتى عدا عليهم العرب وقتلوهم ونهبوا الاموال والمناع ولم
ينج منهم الا القليل، وكانت هذه نكبته الخامسة.

وقد انسل منها فارا بجلده سائنا من الخدمة السلطانية فتوجه
الى وهران ثم الى تلمسان حيث اقام بجوار العباد سنة ونصفا
مشتغلا بالمطالعة والتقييد والتأليف، واطلع هناك على غرائب كتب
التاريخ التي تعد اليوم في حكم المفقودة كتاريخ سليمان بن اسحاق

المطماطي وتاريخ هاني بن يصدور الكومي وتاريخ كهلان بن ابي
 لؤي الاوربي في انساب البربر وايامهم في الجاهلية والاسلام لانهم
 كانوا نسابة البربر وتاريخ العقباني في دولة بني زيان وتاريخ
 ابن مرزوق الذي سماه نفي الوسن في محاسن اي الحسن وتاريخ
 السلطان ابي حمو موسى الزياني صاحب تلمسان الذي سماه واسطة
 السلوك في سياسة الملوك الى غير ذلك.

ثم تجدد عنده باعث السفر والرحلة ففكر في زيارة الاستانة
 وبلاد المشرق متعهدا تلك الديار ومتفقدا ما له بها من الاصحاب
 فذهب الى وهران ثم الى الجزائر ثم الى قسنطينة ثم الى تونس
 حيث احتفل به الولاة والاعيان والعلماء في كل منها، وفي فاتح
 جمادى الاولى من عام 1208 ركب متن البحر الى الاستانة ووصل
 اليها بعد معاناة الاهوال، فقبول بمزيد الترحاب ثم توجه الى الحج
 مع امير الركب ولقي بمكة احمد الجزار والي عكا، فرغب اليه
 في الذهاب معه الى الشام بسبب ما راي منه من البراعة في
 علم الجدول وغيره من العلوم السيمية وكان الجزار مولعا بها
 فرادغه الزياني حتى خالص منه، كما لقي الشيخ جعفر الهندي
 وكاشفه بما في ضميره واخبره بما سيصيبه من شدة في نفسه
 وباله ورجوعه الى المغرب ونكبة السلطان له ثم نجاته من كل

ذلك. فعاد الى مصر مع ركبها وصحبته جاربتان حبشيتان كان قد اشتراهما من المدينة.

وفي كل هذه الاقترالات كان يقابل الوجوه والصدور من رجال الدولة وأهل العلم وبحتفون به غاية الاحتفاء ويتذاكرون معه ايام العز والهناء في مدة السلطانين عبد الحميد الاول ومحمد بن عبد الله. وممن اجتمع به في مصر من العلماء هذه المرة المؤرخ الجبرتي واسماعيل العباسي وسواهما.

وفي مصر وقع له حادث خطير كاد يذهب بحياته حيث ركب النيل في نزهة مع احد الاغوات فانقلب المركب وغرق كل من فيه وسبح رحالتنا جهده حتى خارت قواه ثم انقذه اهل مركب آخر كانوا على مقربة منه واوصلوه الى الشاطيء ومات الاغما واذا س آخرون فكان هذا، صدق نبوءة الشيخ الهندي عن الشدة التي تصيبه في نفسه.

ثم عزم على الرجوع الى المغرب فركب من الاسكندرية مركبا كان متوجها الى ازمير بشحنة من القمح يعود بعدها الى الجزائر حاملا للجنود ولاكن الريح عاكسته فدخل الى جزيرة رودس ومنها الى انطاكية حيث بقي بها شهرا توجه رحالتنا فيه الى القدس الشريف ثم الى دمشق زائرا ومتبركا واتقي بهذه

الشيخين كمال الدين الغري وسعد الدين النابلسي حفيد الشيخ عبد الغني الشهير، ثم توجه المركب الى ازمير فدخلها الزياني ومعه فضلا عن البضاعة عشرون الف قرش نقدا تركيا فتوقف مامور الجمرك في تسليم البضاعة حتى اعلم بحيثية الرحالة وماضي مجده في بلاد الترك فسلمها.

ولم يزل الزياني هناك في عز واحترام مدة ستة أشهر اذ كان السفر قد تعذر عليه بسبب الوباء العام وقلة المراكب. لما عادت المياه الى مجاريها عول على السفر وكان قد اشترى من ازمير بما معه من المال بضاعة من الحرير فشحنها في مركب ذاهب الى الجزائر وتغلف هو لاجل امتلاء المركب بالجند فذهب في مركب آخر الى تونس حيث وضعوا في «الكرنطينة الشما» لمجموعة عرفوا وشرعوا كما يقول «و. وكانت له جارية على وشك الطلق فاشفق من حالها وكتب يتشفع الى بعضهم فلم يجده شيئا. ومن الليلة القابلة جاء الطلق للجارية فكان هو القابلة وولد له ابن سماه بعبد السلام ثم انشأ قصيدة في ذم هذه الكرنطينة ومن وضعها، ولا شك انه كان يتذكر ايام الصولة في رحلته السابقة حين وقف هو واصحابه بسلاحهم يهددون رئيس المركب ويصرفونه عن الدخول الى مرسيليا خوف الكرنطينة ويتمني لو تاتي له ان يفعل

مثل ذلك حتى ينتقم من هؤلاء الولاة القساة ولاكن حيل بيت
العيير والنزوان وقد كبر الرحالة وانصكت قواه فلم يبق له الا
الرجوع الى سلاح اللسان وانطمع به بدل الطعن بالسنان.

ثم بعد النزول الى تونس مائت الجارية بالوباء وتركت
الولد وامه يجد من يرضعه الى ان جاءه رجل مغربي مات له صبي
وبقيت امرأته بدون رضيع فدفعه لها وسافر الى قسنطينة فلم يجد
الزالي بها ثم الى الجزائر وكان انما باع لاجل ذلك نسخة من
صحيح مسلم بخمسين شوبوا اشتراها من مصر بمائة، ولما دخل
الجزائر علم ان بضاعة الحرير لم تصل وان المركب اخذه القرصان
فسلم الامر الى الله وبقي خاوي الوفاض لا يجد ما يكمل به اجرة
الحمار لولا ان القاضي ابا عبد الله بن مالك وصله وباشره بما اصلحه
وبقي منذ ظرا المركب ذحواً من سبعة أشهر، وكان صاحبه يباشر
قضية الجار والسلعة مع المدعو وادعى انه تونسي، وتونس كانت
في مدة صلح معه فأحرز المركب والسلعة وسلم الجند وبذلك وصلت
الى الزيداني بضاعته سالمة فانتعش بعد الانتكاس وعزل على الإقامة
بتلمسان وكتب لاهل فاس ياتونه اليها.

وقد فرح اهله واصدقاؤه برجوعه وكانت قد انقطعت اخباره
عندهم ولاعتنهم رغبوا اليه في الرجوع الى فاس ولم يرساوا اليه عدا

جارية واحدة للخدمة والسلطان نفسه كتب له يامره بالرجوع
ويطأه ويغفبه من الخدمة التي من اجلها هجر المغرب ولاكنه ما
وصل الى فاس واتي السلطان حتى عرض عليه ولاية العرائش
فحاجه بكتابه فحجه ولاكنه عاد فطلب منه بالحاج ان يذهب الى
تفتيش مراسي المغرب ومراقبة عمالها ولما كان هذا الوظيفة
تكليفا موقتا قبله وتضاه بنجاح ثم كلفه ايضا بمهمة اخرى وقتية
في مراكش وبعد رجوعه الزمه خدمته فقلده الكتابة والوزارة
والحجابة وبلغ الى اوج مجده واستقر في برج سعده وذلك سنة 1213
ولم يزل على هذه الحال مدة من السنين الى ان قلب الدهر
له ظهر المجن وحصل منه اللل وكثرت به السعديات فنكبه
السلطان وانزله من على منصة سائر هذه الولايات سنة 1224 وكانت
تلك نكبته السادسة ثم في سنة 1233 مات ولاة البار كما يقول
هو، وانظر هل هو الوالد الذي قبله في المحجر الصحي بتونس وماتت
اه في تلك المدينة او غيره وكان ازيانسي في كبر من سنه
ومحنة من اهمال السلطان له فعظمت عليه المصيبة وتمت بذلك
نكبته سبعا.

على ان هناك نكبات اخر قد مرت الاشارة اليها وهي غرقه
في نيل مصر ودخوله المحجر الصحي بتونس وكان يكرهه أشد

الكراهة وموت الجارية وضياع الحرير وهو بالجزائر على اشد حالات الفقر ولو عدت هذه مع تفاصيل نكبات اليزيد انه لبلغت نكباته اكثر من عشر.

بعد نكبة السلطان له عزم على الرجوع الى المشرق مرة رابعة ثم ثناه عن عزمه بعض المواعظ والحكم التي قرأها في القصيدتين القريديتين الملتين جمعنا من السياسة الدينية والدينيوية - في نظره على الأقل - ما فيه بلاغ للعاقل، وكفاية للعامل، وهما القصيدة الزينية لصالح بن عبد القدوس: صرمت حبالك بعد وصيدك زينب الخ. وان كان هو نسبها لاثير الدين المعروف بالوزير المغربي، وقصيدة ابي الفتح السبتي: زيادة المرء في دنياه نقصان.. الخ وعلى كل حال فان لهاتين القصيدتين فضلا كبيرا على مؤرخنا وعلينا ايضا حيث حملناه على الاستقرار والعزلة ونبتد الخلق طرا والعكوف على التقيد والتأليف حتى ترك لنا هذه الآثار الخافلة والكتب المهمة التي ما كنا نرى منها شيئا لو ذهب يتقلب في البلاد شانه في اول مرة وثانيها وثالثها.

في هذه الفترة المباركة من عمره على تقدمه في السن واذكسار خاطره بسبب النكبة اكمل كتبه الخمسة عشر، ما كان بدأ به منها قبل وما لم يفكر فيه الا حينئذ.

واعظمتها تاريخه الكبير الذي سماه (الترجمان المغرب عن دول المشرق والمغرب) وهو تاريخ عام اراد ان يقف به في صف المؤرخين الكبار كابن خلدون وابن الاثير وابن جرير الطبري وغيرهم. وقد جعله من بدء الخليقة الى نهاية عام 1228 فاستهله بمقدمة في سياسة الملك ثم تاريخ آدم وسلالته الى الطوفان واولاد نوح والدولة الفارسية فالحميرية فالفراعنة فالاسرائيليين فاليونان فالرومان فتاريخ البعثة حيث توسع قليلا ثم الخلفاء الراشدين فالامويين فالعباسيين الى هجوم التتار فالفاطميين فالاغالبة فالايوبيين فالأتراك العثمانيين الذين انبسط في الكلام عليهم مستفيدا من المعلومات التي اخذها عن تاريخ الشيخ كمال الدين الذي لقيه بالاستانة كما سبق. وهنا انتهى القسم الاول من الترجمان.

وبدأ القسم الثاني بتاريخ الادارسة في المغرب فمغراوة وبني يعمرن فالمرابطين فالموحدين فالحفصيين فالمرينيين فالزيانيين فبني الاحمر فالسعوديين فالعلويين ثم فصول في شرفاء المغرب فجامعة في الدول التي لم تعترف بالخلافة فخاتمة في سفارته والبلاد التي زارها. وقد قدمنا انه في ايام ولايته على سجلماسة فكر في وضع هذا التاريخ وذكر في الترجمان انه بدأ به هناك وانه كان يعرض فصولا منه على السلطان مولاي سليمان وكان اميرا اذ ذاك فكان يشجعه ويحضه على اكماله كما تقدم انه في مدة انقطاعه بتلمسان

اشتغل بالتأليف والتقييم من كتب التاريخ فلا شك انه ابتداءً هذا الكتاب بسجل ماسية ثم اشتغل فيه بتأليفان ولاكنه لم يكمله الا في هذه الفترة بدليل انه وصل به الى عام 1228.

هذا والترجمان على كونه مشبعاً بهذه المواد التاريخية العالمية يقع في مجلد واحد فما احراه بالنشر والتعميم بعد التوفيق بين نسخه المتعددة ومقابلتها بتدقيق. وقد نشر منه المستشرق (هوداس) القطعة المتعلقة بتاريخ دولتنا العلوية مع ترجمتها الى الفرنسية سنة 1303 فياليت أصحاب المطابع ينتبهون لهذا الكنز الدفين فينفعوا وينتفعوا. ثاني كتبه في الاهمية رحلته المسماة (الترجمة الكبرى التي جمعت امصار المعمور كله برا وبحرا) في مجلد واسمها كاف في معرفتها فهي جغرافية في الاعم الغالب ولاكنها تحتوي على فوائد تاريخية وأدبية وتراجم مختلفة واعظمها ترجمه الكاتب نفسه وغير ذلك مما جعلها غير ذات خطة مستقلة ولا موحدة الموضوع كما يقول هو عنها بعد سرد برناجها الجغرافي: «وفي كل مقام منها مقال، وفي كل روعس منها مجال، حسبما يقتضيه الحال، ويخطر على البال، من نصوص قرآنية، وتاويلات تفسيرية، وأحاديث نبوية، وفتاوي فقهية، وسواظ صوفية، وحجج قطعية، وادلة معقولية، وشواهد شعرية، وخوايط معنوية، واسامي لغوية، ونواذر سروجية، وقصائد عالية،

وما يناسب كل خبر ويؤيده، ويعتمد عليه ويعضده، وختمتها بنصوص من التوراة والانجيل والفرقان، للرد على اليهود والنصارى والمجوس والمجوس من عبدة النيران»

وعلى كل حال فإن هذه الاستطرادات وإن كانت تفسد جمال الكتب فإن لنا فيما معشر الباحثين فوائد جمة. وهناك مثلاً هذه الاستطرادات التاريخية في الرحلة فإنها تعد تكميلاً للترجمان الذي وقف به عند سنة 1228 بينما الرحلة لا تنتهي إلا سنة 1233 بل إنه سجل فيها بعض حوادث سنة 1234 و 1235.

ثالث كتبه المهمة تاريخ الدولة العلوية المسمى (البستان الظريف في دولة اولاد مولانا علي الشريف) الفه لما لم يجد للدولة تاريخاً مستقلاً وكان لا زال تاريخ الكنسوس لم يكتب فإن هذا منه اقتبس وعلى منواله نسج وكذا من بعده بالطبع، وهناك بقية أسماء كتبه باختصار:

(٤) ألفية السلوك في وفيات الملوك، أرجوزة مرموزة وشرحها.

(٥) الحادي المطرب في رفع نسب شرقاً المغرب وهو مستمد

من الفصول التي كتبها في الترجمان خاصة بهذا الموضوع.

(6) رسالة في سياسة الملك سماها (السلوك فيما يجب على الملوك)

(7) رسالة دينية سماها (الدرة السنية الفائقة في كشف مذاهب

اهل البدع من الخوارج والروافض والمعتزلة والزندقة).

- (8) رحلة الخذاق لمشاهدة الآفاق لخصها من رحلته الكبرى .
- (9) جوهرة التيجان وفهرست الياقوت واللؤلؤ والمرجان في الملوك العلويين واشياخ مولانا سليمان .
- (10) اباحة الادباء والنحاة الجمع بن الاخوات الثلاث، رحلة ثالثة
- (11) كشف الاسرار في الرد على اهل البدع الاشرار .
- (12) تحفة الاخوان والاوليا في صنعة السيميا .
- (13) كشف اسرار المحتالين الاشقياء الذين يزعمون علم الكيمياء وتسمى هاتان الرسالتان ايضا رشف الحميا ونصيحة المغتربين... الخ
- (14) بستان ويقال حلية الادباء والكتاب في مدح هذا الكتاب، يعني الترجمان وقد ضم هذه الرسالة لآخر الترجمان .
- (15) ديوان شعر جامع لانظامه في الاغراض المختلفة .
- ولا يخفى ان بعض هذه الكتب مكرر للبيض الاخر فبتطاع النظر عن هذه الرسائل التي موضوعها ديني بحمت لا نجد صعوبة في رد الفرع الى اصله من كل ذلك كالرحلة بن الصغير بن الي الترجمان الكبرى وألفية السلوك وشرحها والحادي المطرب ورسالة السلوك الى الترجمان وهكذا ونذكر له بعض المؤرخين اسما كتب اخرى وهي الروضة السلمانية في الدولة اسماعيلية وما قبلها من الدول الاسلامية، والتاج والاكليل في مآثر السلطان الجليل مولاي اسماعيل . فبعضهم يجعلها كتباً مستقلة بنفسها وبعضهم يقول انها نفس البستان الطريف وانما هذه اسما اخرى له فبعض النسخ تكون حاملة لهذا الاسم وبعضها لذلك .

الزياني من اولئك الكتاب القلائد الذين تظاهر شخصيتهم القوية بين سطور كتاباتهم عارية من كل تصنع بريئة من كل تزويد واذا كان يبائع بعض الاحيان في ادعاءاته لنفسه واتهاماته لغيره فانما ذلك من سذاجته واغتراره بظواهر الاشياء وربما كان لعدم تثقف قلمه وخشونة عبارته ولو كان مهذب حواشي الكلام لما وقع في كثير من تلك الهفوات. ومما يدل على سلامة صدره وان تلك الحملات التي كان يجمها على كثير من اهل عصره انما هي فوارت نفسية لا تلبث ان تخبو ويذهب اثرها الى الابد ما تجده في رحلته الترجمانية بصدد الشيخ حمدون بن الحاج فتارة يمدحه ويحليه باغلى واحسن الخلى وتارة يقع فيه ويصليسه من انتقاده نارا حامية.

وهو في غالب الاحيان متنبه الشعور دقيق الاحساس فلا يمر بحادثة ولا خبر ولا تقع له واقعة الاعاق عليها بما يناسب واستطرد نظائر واشباها لها مما زاد في قيمة تاريخه وجعله من التواريخ المهمة التي لا تعني بسرد الحوادث والاعخبار مجردة عن النظر والنمحيص هذا مع اختصاره وجمعه لاقتصاره على اهم الاشياء واعراضه عن الحشو والامور البافية، على انه في بعض المرات يسف اسفا فامخجلا وربما كان مضحكا فيروي روايات تحمل في طيها دلائل تزييفها كقوله

ان الكسكس مما صنعه طبيب الجان لسيدنا سليمان، وقوله هذا « وهذه المملكة ليس في الممالك كلها احسن من رجالهم وانشاءهم ولا اكمل حاسن منهم في المعمور كله ولا اجمل اوصافا ولا اطيب خلوة ومضاجعة منهم وانشاءها من الحسن والته والظرف واللمذة الزائدة الوصف التي لم توجد في نساء الدنيا ويبلغ الرجل منهم سن المائة وقوته في نفسه وجماعته باقية. واذا جامع الرجل امراته فانه نسي الدنيا وما عليها واذا بلغت المرأة منهم خمسين او ستين او سبعين (الزيادة بالعشرات فقط) فلا تتغير حاسنها وتبقى على ما كانت عليه وهي ابنة العشرين. يافتاح يارزاق هب لنا من هذا!؟ »

والى جانب هذه السداجة الفطرية يثبت بعض ملاحظاته الصائبة فانه من اول من تحدث عن كره الترك للعرب واحتقارهم لهم وازرائهم عليهم في كل شيء مما ادى الى خروج العرب على الترك اخيرا كما هو معلوم. قال « ومن مساوى الترك مع دينهم واكرامهم للمغرباء واهل البيت والعلماء بغضهم لجنس العرب كلهم وان كانوا غير عرب انما يكلمون بالعربية او البربرية او الهندية يستخفون بهم ويحقرونهم ويهينونهم فهم مجبولون على ذلك متخلقون به خاصتهم وعامتهم في بلادهم وغيرها علماءهم وامراءهم واشرافهم فسبحان من ابتلاهم بذلك ولو بلغ العربي ما بلغ من العلم والشرف والصلاح ما عظم بين اعينهم، شاهدنا ذلك ببلدناهم

وغيرها وبحضرة المملكة العظيمة وكثيرا ما كنت اتحدث مع فقهاءهم
 وامراتهم واجاريهم في الكلام على لسان الترجمان في كل شيء شيء
 ويشنون الثناء الجميل ويعترفون بالفضل لاهله ويذكرون ذلك
 بلغتهم - وكنت اذهيها ولا اتكلم بها لاطلع على ما يخفونه علي
 واكون على بصيرة مع كل طائفة كنت بينها - فكانوا يقولون
 لله دره من رجل ما الطفه وما ادركه وما انسيه اولا انه عربي الخ
 وكذلك كان مما سجده على الحكام الشرك والقضاة الشرعيين
 وسائر اهل النفوذ منهم اخذ الرشا والجور في الحكم واضاعة الحقوق
 واسف على ذلك اشد الاسف. ولما وردت له بضاعة الحرير بعد ان نظاره
 سبعة شهور بالجزائر وكان اخذها قرمان النصارى فوجدتها سائلة
 لم ينقص منها شيء قضى من ذلك العجب وكتب هذه الملاحظة
 التي قل من كان يعترف بها في ذلك الوقت الشديد الجهل والكثير
 التعصب. قال ولما فتحنا صنادقنا وحوائجنا وجدناها على حالها لم
 يفقد منها قلامة ظفر بعد النهب والانتقال فانظر الى هذا الاحتراز
 وهذا الصدق الذي هو من شان المسلمين صار للكفار ولو كان
 هذا الحادث وقع من عساكر المسلمين وتبين فيه التخليط وامس
 ولاتهم برده ما بلغ على حاله بل لم يرجع نصفه ولا ربعه وياخذ
 منه الحاکم والرئيس والمباشر لرده والحامل له والمتكلم فيه ولا

يحصل صاحبه الاعلى التافه منه ولو كان في وقتنا هذا لا يرجع بالكلية وعلى فرض رجوعه ياخذه الذي تسبب في رده نسال الله العصمة والسلامة من ظلمات الجور بمنه وكرمه»

واسلوب الزياني في الكتابة كما تراه سهل واضح قريب من العمومية وان كان في بعض المرات يحتفل احتفال بلغاء الكتاب فيقومه ويسجعه وان كان لا يستطيع ان يخلصه من اللحن الخفيف الشبيه بلحن كتاب الجرائد اليوم. وهذه احدى رسائله الادبية المنمقة كتبها للكمال الغزي بدمشق: احبي طلعة ذلك الهلال، المرقوب بسلامة من النقص بعد الكمال، الذي هو للدنيا جمال وللدين كمال وللمستمعين فال، وللمعترين آمال، تحية صب معتكف على حبكم لا يبرح، وذو وجد بمحاسنكم لا يتكف لعدم انتهائه ولا يشرح، ويستنجز منكم ما وعدتم به من ترجمة الشيخ ارسلان، فقد كان في ذلك عليكم الاعتماد والتكلان، والله يتولى هدايتكم، ويفسح في بقاء مدتكم ومداكم، ولا تبخلوا عنا برؤيتك وانفسنا تفديك، ولا تهتملنا بيضة ايديك، والسلام» ومن رسالة له الى الشيخ حمدون بن الحاج: «شيخ اهل الادب، وذخيرة اشرف العرب، سيف الفقهاء، ولسان الخطباء، العالم المحقق، المشارك المدقق، الورع الزاهد المتخلق بأخلاق الافاضل الامجد، الذي بمضاه عزمه هلام الوقت يقعدون وبآرائه

السديدة يهتدون، محبنا الاجل السيد حمدون، لازالت سيوف اقلامك
 قاطعة لحجج الملبسين وسهام فقرك راشقة لاهل البدع الملبسين وسلام
 الله عليك والرحمة والبركة، حالتني السكون والحركة.. الخ

فالحق ان افكار الزياتي ومعانيه مهيمن ناينبض وكنز لا ينفذ،
 وفي الشعر بالخصوص ويا اسفى على الشعر لو توفيق لاقامة اعاريضه
 وسلامة قوافيه لاتي بالعجب العجاب ولكنه سنان ينظم نظم الفقهاء
 ويعرف ذلك من نفسه ويعترف به فلانواخذه بما ليس في طوقه ولا
 ذلومه على ما لا يدل له فيه والانس قول علمائنا في هذا الصدد:

انما الشعر سجية لا يعلم الخزرجية

وعلى كل حال فلا بد من رواية بعض الاديات من نظمه اذا اما المفائدة.

قال في سفر البحر:

لو كل من ركب البحر اغتنى ونجا
 او كل راكبه اصابه غرق
 خاطر بنفسك في الملا تدرسه
 لولا مخاطرة النفوس ما ظفرت
 لم يبق في البر للانسان من سفر
 فلا ترى عنه طول الدهر من خبر
 وسل من الله حسن الظن في القدر
 بنيل ما تبغى في الدهر من وطير

وقال في تقديم الترجمان والبستان الى السلطان مولاي سليمان:
 اتى سليمان يوم العرض هدهده
 وقد اتيت باخبار الورى جملة
 مترجماني يفي بما وعدت به
 فان رضى عنهما نلتا المنى والغنى
 بخبر من سها ارض بها سيد
 شرقا وغربا سليمان اكن هدهده
 وبستان الملك فيه كل ما شيده
 وان يعبها لا عيب ولا موجدده

وقال يخاطبه بسبب قطع الفتوى:

يامالك يا قاضي بسنة الامين
 نصيحة ترهني امير المؤمنين
 قطع الفتاوي لم يكن بهرتضى
 وفي الحديث علماء امتي
 والله افنى الناس في الكلاله
 يالها من فتوة الرب الكبير
 كذاك قد صرح بالافتاء

مؤيدا بعضو رب العالمين
 والعلماء وجميع المسلمين
 ولم يقع في الزمن الذي مضى
 كالانبياء تبليغهم بفتوة
 لما استفتوا لصاحب الرسالة
 افادت الحض على الفتوى كثير
 من بعد الاستفتاء في النساء

الخ .. وهكذا كان يسجل الحوادث المهمة في شهره ودرسه
 لها قلمه تايدا وانكارا من غير خوف ولا وجل شان اصحاب النفوس الكبار
 وذوي الغيرة من اهل الاخطار. فمما قاله في حدود عام 1248 مخاطبا
 السلطان مولاي عبد الرحمت في عزل واليه على فاس القائد الطيب
 الوديني؛ وقد كان الزياني في ذلك الوقت شيخا هما قد تجاوز المائة :

يامالك لا يرى عزل الولاة ولو
 فليس هذا بقانون الملوك ولا
 اخفض جناحك للشكاة والقهم
 لا تعتمد في مظالم على حاجب
 قد جاء في الذكر لعن الظالمين غدا
 وانت وايت هذا العبد مفترسا
 ياكل اموالهم يهتك اعراضهم
 فكل افعاله تكتب في صحف

جاروا ولا يقبل الشكوى بواليه
 وقع في غربنا ولا في شرقيه
 واسمع كلامهم واعمل بما فيه
 ولا وزير فوالي الجور يرشيه
 وفي الحديث الذي تلبو وترويه
 سبع سنين وكل الناس تشكيه
 ينزني جهارا ولا يخاف باريه
 عليك يا بن رسول الله فادريه

وفي المعاد ترى الصحف منشرة
 فما تقول وما عندك ياملكا
 فانظر لنفسك اودعها على غمرر
 والله ما قلت ذا بغضا ولا فندا
 ان لم ترد عز له فالله يهلكه
 اذ ليس لي ناقة في ذا ولا جملا
 اليك بالذي كان يجيى ويخيه
 مع الاله الذي ولاك تكفيه
 فالموت ياتي على كل ويفنيه
 الا نصيحتكم لله فاقصيه
 عما قريب ورب البيت يحميه
 فسل تجد صدق ما قلت لكم فيه

نعم بقول هذا الزباني الشجاع القوي النفس المخشى الماردة في
 سنة 1248 وهو في سن المائة والواحد على حافة الموت ، فما اعجب امره
 واشد اسره! وبعد ذلك بعام واحد عصر يوم الاحد 4 رجب 1249 كانت
 هذه النفس الكبيرة قد فارقت العالم واستراحت من متاعب الحياة وامنت
 من ملاحقة النكبات وذلك عن مائة واثنين من السنين كما يجب ان
 يكون اولادته على ما تقدم في عام 1147 ووهم صاحب السلاوة ومن تبعه
 فقال عن ست سنوات.

فاذا كنت ايها القاري بفاس فاقصد الحي المعروف بالسياج
 وفي الزاوية الناصرية الموجودة هناك بالصحن المتصل بالمقبة حيث يرقد
 الكاتب العظيم قف قليلا بخشوع واقرا الفاتحة لتلك الروح الكبيرة عن
 اول مغربي وفاها حقها بعد قرن كامل من الزمن!

